

الصنف السابع: دعاة الدّعة والرّاحة

هناك صنفٌ من الدعاة، معظمهم في بلاد الغرب يُحبون أن يعملوا للإسلام على وسعهم على أن لا تجلب إليهم دعوتهم إلى الإسلام ضرراً، ولا تفويتاً لمصلحته الشخصية، لأنه كان قد خاطر بنفسه من أجل الوصول إلى أوروبا وأمريكا ليعيش هو وأولاده على فتاة موائدهم، فتلك الدول قد كفته عن شؤون أسرته من مصاريف، ومستلزمات الحياة، فيتشبث بها إلى النخاع، ولا يسمح لأحدٍ أن يُعكّر عليه صفو عيشه هناك، فتلك فرصة لا تُعوّض عنها، وأيُّ شيء يتعارض معها مرفوضٌ تماماً لأن البديل عنده هو العودة إلى البلد الذي جاء منه ليبدأ الحياة فيه من الصفر، وهو غير مستعد لذلك.

لهذا فهو يحرص كلَّ الحرص على ترضية غير المسلمين، فيزعج من أيّ صدام مع غير المسلمين أيا كان نوعه، ولو كان المسلمون هم المعتدى عليهم، فعليهم في نظره أن يتحمّلوا كل أنواع الاضطهاد، ويكفيهم التعاطف الدولي معهم في الظاهر.

ولو أنه وقف عند هذا الحد، ولم يتظاهر بأنه داعية لكان له بعض العذر، لأنه بذلك يكون ككثير من عامة الناس الذين ليس لهم هدف في الحياة غير أن يعيشوا لكن هذا الرجل يريد أن يتظاهر بأنه داعية، ثم يريد أن يسلم من تبعاتها، فيحاول أن يجعل متطلبات الدعوة تتفق مع هدفه في العيش، فبدلاً من أن يتحمل متاعب الدعوة على نفسه يُحمّل هو متاعبه على الدعوة، فتتعرثر بسببه، فلا هو يخدمها بجهده ووقته، ولا هو ينأى بنفسه عنها حتى تسلم من عرقلته، وإنما يريد أن يلصق نفسه بالدعوة ليُحمد بما لم يفعل، فيضطر إلى جمع كل تلك التناقضات في شخصيته.

ومن مواقفه التي لا تُخطئه العين أنه إذا قام أحدُ أفراد المسلمين في الشرق أو الغرب برّد فعلٍ من تلقاء نفسه تجاه تلك الأفعال الشنيعة التي تُمارس على المسلمين صباح مساء لا يدّخرُ وسعاً في استخدام أشدّ عبارات التنديد، والاستنكار لذلك الفعل، فيسارع إلى القول بأن الإسلام بريءٌ من ذلك، وأن الفاعل وحده هو من يتحمّل مسؤولية ذلك جنائياً، وأخلاقياً، فيترجى من غير المسلمين أن لا يُعمّموا فعله على المسلمين، ثم يبالغ في الاعتذار إليهم باسم المسلمين عما بدر عن مرتكب تلك الجريمة التي لا يُقرّها دينٌ لا قانونٌ.

وفي المقابل إذا تعرّض المسلمون لهجمة شرسة من غيرهم تلقاء ذلك الحدث، لا يزال ذلك الداعية يُحمّلُ الذنبَ على ذلك المسلم لأنه السبب الأول لكل ما حدث، ويغضُّ الطرف عن كل ما سبق ذلك الحدث من الجرائم في حق المسلمين، وهمُّه الأكبر في كل ذلك أن يكون مرضياً عند كل الأطراف، فهو عند المسلمين داعية، وعند غير المسلمين متسامح، وفي نظره أنه بذلك وفق بين مصالحه ومبادئه.

ولكن سرعان ما يتبدد هذا الفهم، فيذهب هباءً لأن الطرف الآخر، وهم غير المسلمين لا يرضون عن المتسامح معهم إلا في مرحلة من المراحل يستخدمونه كورقة ضغط على من يسمونه متطرفاً، فإذا فرغوا منه رجعوا على من يزعم أنه المتسامح معهم، واعتبروه متطرفاً { وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ }.

وعندئذ يحنُّ جنونه، فيحاول أن يُثبت لهم بكل البراهين أنه لا يزال متسامحاً معهم، وأنهم مخطئون في عدّه متطرفاً، فإذا لم تُجده تلك التوسلات نفعاً، وأدرك أنه المقصود في الأمر بسبب دعوته إلى الإسلام تخلى عن دعوته، واعتزل عن الساحة لئلا يُعرّضَ مصالحه للخطر، وإذا رُوجع في سبب انصرافه عن الدعوة، قال: إنه لم يتركها، وكلُّ ما في الأمر أنه غير التكتيك مراعاةً للظروف التي تمرُّ بها الدعوة، وهكذا ينتهي دوره إلى الأبد. { مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ }.

ثم ليعلم الجميع أن طريق الدعوة ليس مفروشاً بالورود، فإن تعاطى بها من لا يريد بها وجه الله افتضح بها أمره بأول اختبار يتعرّض له بسببها. { أَلَمْ أَحْسَبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ . وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ }.

إن الذي يريد أن يظهر للناس على غير حقيقته قد ارتكب جرماً في حق نفسه لأنه قد أحبط عمله الدعوي بالرياء، فيُعاقب به يوم القيامة بأن يشهّره الله، ويفضحه على رؤوس الأشهاد، ويُظهر للناس ما كان يخفيه عنهم في الدنيا على نقيض قصده، قال النبي ﷺ: « من سمع سمع الله به، ومن رأى رأى الله به»^(١).

(١) رواه البخاري برقم (٦٤٩٩) ومسلم برقم (٢٩٨٦) واللفظ لمسلم.

فالله هو الذي يُجازي المحسنَ على إحسانه، والمسيءَ على إساءته، وغيره من بني البشر لا يملكون له ضرراً ولا نفعاً، وليحرص الداعية كل الحرص أن يكون باطنه خيراً من ظاهره، وأن تكون له أعمال صالحة لا يعلم بها إلا الله لا يشوبها شائبة من رياء ولا سمعة، ولو لا الابتلاءات لساد الناس جميعاً، ولكن الله يبتلي العباد تارة بالنعماء، وأخرى بالبأساء ليقوم بمراجعة نفسه، {وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} .

لا علاج لهذا الصنف من الدعاة إلا تقويتهم إيمانياً عن طريق تطبيق منهج تربوي مكثف، يمرُّ به كلُّ داعية لا يُستثنى منه أحد، ليتزوّد منه ما يستعين به على تحمُّل ما قد يتعرض له من الأذى في سبيل الدعوة، فليس هو بأفضل من أنبياء الله ورسله، وقد تعرّضوا لسنوف من الاضطهاد والحرمان حتى وصل بعضهم الأمر إلى قتلهم { إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّاتِ بَعِيرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ } .

وليكثر الداعية من الاطلاع على سيرة الرسول وصحابته والصالحين من عباد الله، فإنه سيقفُ بلا شك على أن هؤلاء الصفوة من الأخيار عانوا في سبيل مبادئهم الويلات لكنهم تحملوا كل ذلك في ذات الله حتى أمكن لهم أن يصنعوا من العدم إنجازاً يشهد لهم التاريخ، وما ذاك إلا لأن الله علّم منهم صدق نياتهم، فبارك لهم في جهودهم، فأورثوا تلك الإنجازات للأجيال التي بعدهم، فنحن علينا إن لم نستطع أن نضيف إلى إنجازهم إنجازاً، فلا أقل من أن نحافظ على إنجازاتهم وإن عجزنا عن هذا وذاك، فقد عرّضنا أنفسنا بأن نُستبعد عن مسيرة الدعوة لأننا نكون بذلك غير مؤهلين لحملها، فيأتي الله بقوم آخرين يكونون على مستوى المسؤولية قال تعالى: { وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ } .

ومعنى الآية أن الدعوة الإسلامية ستسمر، وتُحقّق نجاحها رغم أنف المعرقلين، وذاك وعدٌ من الله، ووعدُ الله سيتحقّق بلا شك، فهو إن تأخر فترة من الزمن لكنه لا يتخلف { يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ * هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ } .

فالدعوة إذن أجلٌ من أن تُستغلَّ بها لمصالح شخصية، أو يتزعم عليها من ليس مستعداً بالتضحية، فللدعوة رجالها، وللجبن والخور رجاله، فلا ينبغي الإنسان أن يضع نفسه في المكان غير اللائق بها، قال الشاعر:

خلق الله للحروب رجالاً... ورجالاً لقصةٍ وثريدٍ

وفي الختام أقول: إن قافلة الدعوة تسير وفق منهج الله تحقق النجاحات تلو الآخر حتى ترفرف راية الإسلام على جميع أرجاء المعمورة بعزٍّ عزيز، أو بذل ذليل، وذاك موعود الله في كتابه الكريم { ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون } ولن يستطيع أحد أن يوقفها مهما أعطي من القوة والجبروت. { والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون }.

وصلّى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

بقلم الدكتور/ عمر إيمان أبو بكر